ذلك السلوك الفظ يأتي كخيبة أمل للشاعر الذي فرح في البدء بمجيء البدوي كدليل يخرجه من متاهة الصحراء، ثم كمنقذ فيما بعد، حين رأى الطوفان مقبلاً عليه، وهو أيضًا سلوك مناقض لما دأبت الطبيعة على فعله كدليل مرشد لشاعرها (المقدمة الكتاب الأول، ١٦-١٨) ولسلوك من ترسلهم الطبيعة بين الحين والآخر كرسل هداية ومحبة ونلتقي بهم في قصائد مختلفة لوردزورث.

كيف لنا إذًا أن نفسر هذه الازدواجية في الشخصية والسلوك، ازدواجية البدوي كإنسان فظ متعال، وكساكن وديع في الصحراء مجنون بالحب والمهام الحضارية ؟ المنحى الشكلاني في قراءة النص وارد هنا بالطبع، لكنه يظل قاصرًا عن الإلمام بجوانب الصورة المختلفة. فلو أغلقنا النص على نفسه وقلنا إن وردزورث يرمي إلى خلق نوع من التوتر الدرامي في شخصية البدوي ليمنح الصورة قدرًا أكبر من الحيوية، لما كان ذلك كافيًا لتبرير النشاز الذي يمثله سلوك البدوي بين مجموعة المرشدين في شعر وردزورث. فلماذا التوتر الدرامي هنا فقط وليس في حالة «جامع العلق»-Leech Gatherer مثلاً في قصيدة « Resolution and Independence التصميم والاستقلال»، أو في حالة الجندي في نهاية الكتاب الرابع من المقدمة نفسها، أو الفلاح في نهاية الكتاب الرابع عشر من تلك القصيدة، وهي شخصيات تشبه شخصية البدوي من نواحٍ عدة؟

إن ثمة مرجعية أخرى لا ينفيها التوتر الدرامي على أية حال، مرجعية تقربنا أكثر من فهم الازدواجية التي تصل إلى حد التناقض في شخصية البدوي. تلك المرجعية هي التي نجدها عند سرفانتيس أيضًا. فالمؤلف العربي سيدي حامد يدخل الرواية في إطار من السمعة السيئة التي كانت للعرب في أسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر: «والآن إذا كان هناك أي اعتراض على صحة هذا التاريخ، فإنه ينحصر في كون راويته عربيًا، وأفراد ذلك الشعب جاهزون للكذب...» (دون كيهوته، ص ٧٨). لكن ذلك العربي «الكاذب» ما يلبث أن يتحول، في مكان متأخر من الرواية إلى «فيلسوف محمدي» ألهمته الطبيعة إلى حد التماهي مع مخترعه سرفانتيس (دون كيهوته، ص٨١١). إن التكنيك الساخر الذي يوظفه الكاتب الأسباني لتقديم مؤلفه العربي يجد تفسيره الأنسب ضمن مرجعية تاريخية - ثقافية تشكلها علاقة العرب بالمسيحيين